تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

تحية قلبية وأخرى قلمية :

أتلقى من حين إلى آخر كثيراً من الكتب التى يهديها إلىّ أدباء تربطنى بعضهم صلات ود وصداقة ، ولا يربطنى بأكثرهم شىء من صلات الود والصداقة ، وكذلك الأمر فيما يختص رسائل القراء . ومما يؤسف له أن الذين يخرجون الكتب فى هذه الأيام من الكثرة بحيث لا يستطيع الذين يكتبون النقد وهم قلة ، أن يتتبعوهم فيما يكتبون وأن يتحدثوا عن مؤلفاتهم ناقدين أو عارضين ! وليت الأمر يقف بهم عند هذا الحد ، وهو التفضل بإهداء الكتب والاكتفاء بتقبل الشكر ... كلا ، ولكنهم يطلبون إلى الناقد — عن طريق التلويح أو التصريح — أن يكتب عن الأثر الأدبى الذى أخرج ، وأن يثنى على المجهد الفنى الذى بذل ، لقاء ما قدموا إليه من ثمرات القرائح وما حلموا عليه من أثواب المديح والإطراء ! ويحار الناقد ماذا يقرأ وماذا يدع . إن وقته لأضيق مما يقدر الذين بعثوا إليه بكتبهم راجين أن يشير إليها من قريب أو من بعيد ، وإنه ليلقى من كتبهم إذا ما قراها كثيراً من المنت والإرهاق ، وإن كثيراً منها ليذهب فيها الوقت والجهد بلا فائدة ترجى ولا غناء ! .

والدهشة بعد ذلك فى تلقى العتاب إذا ما تحدث عن كتاب فلان وأغفل كتاب علان ؛ الدهشة التى تصاحبها الحيرة فى الاعتذار لمن يهدون إليه كتبهم فلا يكتب عنها فيعتبون ... ماذا يقول لهم وكيف يعتذر إليهم ؟ أيقول لهم إنه لم يجد من وقته متسعاً للكتابة ، أم يعتذر إليهم عن غثاثة الإنتاج وضآلة الجهد وتفاهة المادة ؟ ! أمران كما يقولون أحلاهما مر . وليت الكتاب من أصدقاء وغير أصدقاء يقدرون هذه المرارة ويخففون من وقعها على النفس والشعور ! .

أما أنا فقد آليت على نفسى ألا أكتب عن أى أثر أدبى إلا إذا لمست فيه نفعاً للأدب وفائدة للقراء . وحسب كتاب لم يتحقق فيه هذا الأمل المرجو أن أقدم الشكر على إهدائه ، وحسب صاحبه تحية أقدمها إليه من قلبى ... أما الكتاب الذى يضيف إلى رصيد القارئ ثروة فكرية جديدة فلن أتردد فى أن أقدم إلى صاحبه التحية من قلبى ! .

هذه كلمة عن مؤلفات الأدباء أنتقل بعدها إلى رسائل القراء . إن بعضها يردد نغمة واحدة لا تكاد تتغير ، وهى الشكوى من إهمال « الرسالة » لكثير مما يرسل إليها من إنتاج أدبى لا ذنب لأصحابه إلا بعدهم عن الشهرة وذيوع الاسم ! أما بعضها الآخر فيحمل إلىّ مقالات وقصائد مصحوبة برجاء مرسليها أن أدفع بها إلى المطبعة لتأخذ طريقها إلى صفحات « الرسالة » وأيدى القراء ، لأن ذوق التواضع من شأنه — فى رأيهم — أن يستجيب لأمثال هذه الرغبات الفكرية والتهويحات الروحية ! .

إن ردى على هؤلاء الذين يحتكمون إلى ذوق ويطلبون وساطتى ، هو أننى لا أملك لهم غير الشكر والإعجاب ، ولكن إعجابى لن يغنى عنهم من « الرسالة » شيئاً ... إن المرجع الأول والأخير هو ذوق الأستاذ العميد وإعجاب الأستاذ العميد . وإنه فيما أعلم لا يوصد بابه ولا يغلق قلبه فى وجه الذين تلوح له منهم بوادر نبوغ أو نفحات ذكاء أو اكتمال أداة ! أما الشاكون من إهمال إنتاجهم فيستطيعون أن يجدوا الجواب على شكواهم فى هذه الكلمات ، وليثقوا من أن عميد « الرسالة » لا يتردد فى نشر ما يستحق أن ينشر ، ولا فى تقديمه على غيره إذا كان يستأهل التقديم

والدليل على ذلك قصيدة هذا العدد ، فإن صاحبها الناشىء لم يعرفه أحد ، ولم يقرأ له فيما أظن أحد .

رأى فى السير ريالزم :

يسألنى قارئ فاضل من قراء « الرسالة » عن رأيى فى مذهب « السير ريالزم » عقب أن أتيت على ذكره فى الكلمة التى تناولت فيها بالنقد كتاب « خلف اللثام » ... وهل يقدر لهذا المذهب الجديد الذى غزا ميدان التصوير والأدب فى فرنسا وبعض البلاد الأوربية ، أن تشيع تعاليمه وتسيغه الأذواق ويستجيب له الفنانون هنا كما استجاب له بعضهم هناك ؟ .

إن رأيى الذى أومن به ولا أحيد عنه هو أن مذهب « السير ريالزم » شعوذة فنية لا أكثر ولا أقل ، سواء فى ميدان التصوير أم فى ميدان الأدب .. إن الفن الذى لا تخرج منه بغير « اللخبطة » لا يعد فناً ! وأى فن هذا الذى لا يبعث فى نفسك وحسك شعوراً بالجمال ولا تذوقاً لألوانه ومعانيه ؟ أى فن هذا الذى لا تلمس فيه أثراً للربط بين فكرة وفكرة ولا بين مقدمة ونتيجة فى أدب

الكاتب ، ولا تناسباً بين بُعد وبُعد ولا بين زاوية وزاوية في لوحة الرسام !! .

« لخبطة » ولا شيء غير « الخبطة » ... وحسبك أن تقرأ كتاباً لأندريه جيد وآخر لأندريه بريتون ، وأن تشاهد لوحة من لوحات دي لاكروا وأخرى من لوحات بيكاسو ! إن جيد يمثل الوضوح والصدق والجمال ، فهو قريب إلى عقلك ، قريب إلى قلبك ، قريب إلى ذوقك ؛ لأن أدبه وليد وشائج قوية من صلة الفن بالحياة ... أما بريتون فهو هناك فيما وراء الواقع ، أو فيما وراء العقل والقلب والذوق ، أو فيما وراء الشطحات الفكرية التي تلغي كل صلة بين الفن والحياة !

بريتون في الأدب وبيكاسو في التصوير ، وكلاهما عميد المذهب السريالي في فنه ... أما بيكاسو فكان فناناً عظيماً يرفع من فنه الخصوم قبل الأصدقاء ، ولكن انحرافه في أواخر أيامه إلى هذه الشعوذة السريالية أفقده من كانوا يكبرون فنه ويشيدون بنبوغه وعبقريته ! إن الفارق بين لوحة من لوحات دي لاكروا وأخرى من لوحات بيكاسو ، هو الفارق بين فن يهز فيك مواطن الإحساس بالجمال وفن يهز فيك مواطن الإحساس بالنفور ... إنك تستطيع هناك أن تخرج بشتى المعاني ولكنك لا تستطيع هنا أن تخرج بشيء !

هذا هو رأيي في المذهب السريالي ، وأؤكد للأديب الفاضل أن هذا المذهب الجديد لا يشق طريقه في فرنسا وهي موطنه الأول بسهولة ويسر ، لأن خصومه الكثيرين يهاجمونه في عنف لا هوادة فيه ، ويرمون أصحابه بالدجل والخروج على كل مألوف من أوضاع الفن ! وإذا كان بعض الكتاب والفنانين قد انحرفوا إلى هذا المذهب واندفعوا في تيار الدعوة إليه فإنه على التحقيق انحراف إلى حين واندفاع إلى حين ... ذلك لأن الساخطين عليه لا يقاس إليهم الراضون عنه ، سواء في مجال الكثرة العددية أو في مجال الطاقة الفكرية ، أو في مجال الشهرة والتفوق وغلبة الآراء والأحكام . ولا أعتقد أن مثل هذا الشذوذ في محيط الأدب والفن يمكن أن يكتب له البقاء هنا إلا إذا كتب له البقاء هناك ، وهذا أمر يشك في وقوعه إذا ما احتكمنا إلى العقل الذي يزن النتائج على ضوء المقدمات !

هول مسابقة المصور للقصة القصيرة :

لم أكن أعرف أنني محتاج إلى دروس في فن القصة حتى قدر لي أن أطلع على كلمة في « البريد الأدبي » وجهها إلى الأديب حسن صادق حمدان في عدد « الرسالة » الماضي ! ...

لقد رأى الأديب « العالم » أن يعقب على كلمتي التي نقدت فيها رأياً لمجلة المصور عن فن القصة القصيرة ، ولقد جاء في تعقيبه أنني انحرفت عن الصواب حين قلت إن القصة التحليلية حين تبلغ غايتها من تشريح المواطف والنزعات لا تكون محتاجة في التالب إلى المفاجآت ؛ انحرفت عن الصواب لأن مجلة المصور لم تشترط أن تكون القصص المتسابقة من النوع التحليلي ... لو راجع الأديب المعقب نفسه ورجع إلى ما كتبت ، لعلم أنني كنت أنقد رأياً ينادي بأن المفاجأة في ختام القصة تعد أهم أركانها على الإطلاق ، ومعنى هذا أنني كنت أعترض على رأي يغلب عليه التعميم حيث يجب التخصيص ، لأن هناك فناً قصصياً يخرج عن دائرة هذا الحكم الذي لا يفرق بين قصة موضوعية وأخرى تحليلية ، هذا هو ما قصدت إليه في مجال التعقيب على رأي لا صلة له بما اشترطه « المصور » للمسابقة من تحديد النسبة العددية لكلمات القصة بستمائة كلمة ، وإذن لا أكون قد انحرفت عن الصواب ، ولكن الأديب المعقب هو الذي انحرف عن الفهم !

وأؤكد له مرة أخرى أن القصة الطويلة هي وحدها المقياس الفني الكامل لمواهب القصاص وطاقة القصاص ، وأن الجهد الذي يبذل فيها لا يمكن أن يقاس إليه نظيره في القصة القصيرة . ولقد قدمت له هذا الرأي في شيء من التفصيل ، وبقي أن أقدم إليه الدليل : إن الأستاذ توفيق الحكيم يكتب « لأخبار اليوم » قصة تمثيلية قصيرة كل شهرين تحتل صفحة واحدة لا تزيد عليها إلا في القليل النادر ، ويمكنه أن يرجع إليه ليسأله عن الوقت والجهد اللذين يبذلهما في كتابة مثل هذه القصة ، إنه لا ينفق في كتابتها إذا ما نضجت الفكرة في ذهنه أكثر من بضع ساعات ... هذا في تمثيلية قصيرة من فصل واحد ، فهل يدري الأديب المعقب كم بذل توفيق الحكيم من وقته وجهده في وضع مسرحيته الجديدة « أوديب الملك » ؟ لقد أنفق فيها من وقته وجهده أربع سنوات لا بضع ساعات !! ثم هل يظن أن العناء الذي لقيه محمود تيمور في كتابة قصة قصيرة مثل « خلف الشام » يعادل ما لقيه من عناء في كتابة قصة ضخمة مثل « سلوى في مهب الريح » ؟ وإذا أراد أن يحكم على الطاقة الفنية عند توفيق الحكيم فهل تنكشف له هذه الطاقة من مسرحية تحتل صفحة من

« أخبار اليوم » كما تنكشف له من « أهل الكهف » و« بجاليون » و« شهر زاد » و« سليمان الحكيم » و « أوديب الملك » ؟ ! وهل تنكشف له الطاقة الفنية عند تيمور من قصة قصيرة كما تنكشف له من « نداء المجهول » و« حواء الخالدة » و « سلوى » ؟ ! وبعد ذلك يقول لي في تعقيبه : « إن كاتب القصة القصيرة يلاقي دفعة واحدة جميع الصعاب التي كانت متفرقة في القصة الطويلة » ! — أي صعاب يا أستاذ ؟ إن جي دي موباسان في مجال القصة القصيرة خير بكثير من أونوريه دي بلزاك؛ ولكن أنفاسه تنقطع إذا ما حاول أن يجري معه في حلبة القصة الطويلة — هناك حيث رفعت بلزاك طاقته الفنية إلى مرتبة أعظم قصاص في تاريخ الأدب الفرنسي . إن القصاص العظيم أشبه بالجواد الأصيل — ذلك الذي لا تتضح طاقته على المدّ إلا في رحاب المسافات الطويلة !

هذه كلمة لا أعتقد أنها تشق على فهم الأديب المعقب ، وأرجو ألا تشق على أفهام غيره من المعقبين !

الفهم عثرنا وعثرهم :

وقفت في «الأهرام» منذ أسبوعين عند صورة رائعة المنزى بعيدة الدلالة ، تستحق من كل ذي عينين أن يقف عندها طويلا ليخصها بفيض من إكباره وإعجابه ... أما تلك الصورة الفريدة فقد أشارت إليها الصحيفة الكبرى بهذه الكلمات :

«يقوم الممثل الكبير سيرلورنس أوليفييه مع زوجته فيفيان لي بتمثيل مسرحيتهما الجديدة (مدرسة الإشاعات) على مسرح (نيوثيتر) بلندن . وقد بلغ من تهافت الجمهور على مشاهدة هذه المسرحية أن حجز جانب كبير من الأماكن مقدماً لمدة أسابيع؛ ويرى في الصورة جمع كبير وقد افترشوا الأرض لقضاء ليلتهم أمام مدخل المسرح ، ليتمكنوا من حجز أماكنهم عند فتح شبابيك التذاكر في الصباح ».

أناس يفترشون الأرض وفي بيوتهم الفراش الوثير، ويتحملون مرارة الانتظار وما كان أغناهم عن الانتظار ، ويضحون بالوقت وما أحوجهم إلى كل دقيقة ينفقونها وتعود عليهم بما يشتهون ، ولكنه دعاء الفن ... يلتقي منهم آفاقاً مصغية ، وقلوباً متلهفة ، ونفوساً تتشد متعة الذوق والتفكر والروح .

عندهم فنانون عشقوا الفن وأخلصوا له ، وعندنا مهرجون أجادوا التهريج ونبغوا فيه ... وعندهم جمهور مثقف يستهويه كل جليل من الأمور وكل رفيع من الفنون ، وعندنا جمهور بليد الذوق متحجر العاطفة ، يقضي ليله ونهاره متسكعاً في الطرقات أو متثائباً على القهوات ! عندهم الوقت يوزعونه بين العمل المثمر حين يناديهم الواجب ، وبين الكتب المفيدة حين تدعوهم المعرفة ، وبين ملاعب التمثيل حين يشوقهم التحليق في سماء كل معنى جميل؛ وعندنا الوقت نضيق بطوله ؛ لأنه فراغ وهباء : العمل في أخلادنا استخفاف بالتبعة وانحراف عن الجادة ، والكتب في أيدينا مجلات تدغدغ الغرائز بالصور العارية والأفكار العارية ، والترويح عن النفس في رأينا ميل إلى كل تسلية تافهة وكل لهو رخيص !

هذا هو الفن عندنا وعندهم ... وإذا كنت قد دفعت إلى شيء من الاستطراد ، فإن الحديث في مجال الفن يغري به ويدعو إليه ، وحسب المسرح هناك هذا الامتلاء ، وحسبه هنا هذا الخواء!

شهداء التل العليا :

قرأت بتأثر بالغ تلك الفصول التي كتبها في « المصور » القائمقام الشهيد فهيم بيومي قبل أن يودع مثله العليا في الطريق إلى الله ... فصول كتبها بمداد قلبه ثم ختمها بدماء قلبه ، وعلى صفحات « المصور » وفوق ثرى الأرض المقدسة ترك البطل الشهيد وصيته لأصحاب التل العليا : سطورها من وقدات الفداء ونبل التضحية ، وألفاظها من افحمات الجهاد وصدق البطولة ، ومعانيها من وثبات الوطنية وحرارة الإيمان !.

فهيم بيومي ومن قبله أحمد عبد العزيز ومن بعدهما أبطال وأبطال ... وفي سبيل الله والوطن دماء تجري القدر عيوناً لتسقي بها رمال الصحراء ! لقد كانوا أصحاب مثل عليا ، في سبيل مثلهم عاشوا على الأرض وفي سبيلها صعدوا إلى السماء : أرواحهم على أيديهم وأنظارهم إلى الأفق البعيد ، وهمساتهم في رحاب المجد أشواق ... ولقد مضوا إلى غير رجعة ، وبقيت منهم الذكرى تعبق في آفاقنا بأريج الحب ، وتمطر مآقينا بدموع الوفاء ، وتملأ تاريخنا برنين الخلود ! يا رحمة الله لكم يا أبطال !.. لقد كان شاعرنا ينطق بلسانكم حين قال :

أخي إن جرى في ثراها دمي ... وأطبقت فوق حصاها اليدا
فنفتش على مهجة حرة ... أبت أن يمر عليها العدا
وقبل شهيداً على أرضها ... دما باسمها الله واستشهدا

أنور المعداوي